الإمام أبو الوليد الباجي أديبا وشاعرا (ت 474هـ)

د : بلاعدة العمري
جامعة محمد بوضياف المسيلة

الملخص:

مما هو معلوم أن الإمام أبا الوليد الباجي كان في بداية حياته ومشواره العلمي مهتما بالأدب والشعر كثيرا حتى أنه كان يجمع دواوين الشعر ويحفظها، وقد ساعده على ذلك الوسط العائلي الذي كان يعيش فيه، حيث كما ذكرنا سابقا أنه تلقى العلم في أوّل مراحله على خاله أبي شاكر الذي يعتبر من الخطباء البلغاء، ومن الشعراء الفصحاء المشهورين بالأندلس، فاستفاد منه كثيرا خاصة في هذا الجانب حتى صار بارعا في الأدب وممارسة الشعر. وقد بدأ أبو الوليد الباجي حياته كشاعر يمدح الأمراء والرؤساء والملوك، سواء أثناء إقامته بالأندلس أو بعد رحلته إلى المشرق، ومروره بمصر والقيروان، فكان أبو الوليد الباجي لا يمر ببلد في رحلته المشرقية إلا ويقول شعرا حتى احتاج في سفره إلى القصد بشعره. وقد تولى ابنه أبو القاسم أحمد جمع أشعاره، لكن لم يصل إلينا منه سوى ما أوردته تلك المصادر التي ترجمت للإمام الباجي. والظاهر أن جلّ أشعار أبي الوليد الباجي نظّمها بعد عودته من رحلته المشرقية، وبعد أن رسخت قدمه في العلم. وقد تضمن شعر أبي الوليد الباجي جملة من الأغراض المختلفة، والتي تعكس تجربته في الحياة، ولكن الغالب على موضوعاته الشعرية الرثاء والحمد والتأمل.

تمهيد:

يعدّ الإمام أبا الوليد الباجي من أكبر أعلام المالكية في الأندلس، كان أديبا وشاعرا، فضلا عن كونه فقيها أصوليا بارعا، ومحدثا حافظا.

وقد اهتم الباحثون بما أبدعه في مجال الفقه والأصول، والحديث وبقية علوم الشريعة، لكن جانب اللغة والأدب والشعر نادرة هي الدراسات حوله؛ لذلك أردت أن أسهم في هذا الجانب من حياته كونه كان أديبا بارعا وشاعرا مطبوعا، ولكن قبل ذلك كله، لا بدّ من تقديم ترجمة للإمام أبي الوليد الباجي.

أولا: ترجمة الإمام أبي الوليد الباجي(1 (

-1- **اسمه ونسبه:** هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي المالكي الأندلسي الباجي، أصله من بطليوس، حيث انتقل آباؤه إلى باجة الأندلس، ثم سكنوا قرطبة واستقر أبو الوليد بشرقي الأندلس. وأسرة أبي الوليد من الأسر العلمية المتدينة التي عرفت بالتقوى والعلم والنباهة والنبل، فقد كان له إخوة أجلة، كما كان جدّه من أمه، وخاله من أهل العلم .

-2- **مولده ونشأته العلمية:** ولد أبو الوليد في مدينة بطليوس يوم الثلاثاء منتصف ذي القعدة سنة 403هـ (2)، ونشأ وترعرع في بيت علم ونباهة، وسط أسرة عربية عريقة اتسمت بالتقوى والصلاح والعلم. ومن ثمة فلا عجب أن يتجه أبو الوليد الباجي نحو طلب العلم والمعرفة منذ صغره بهمة عالية ورغبة صادقة، حيث بدأ مرحلته التعليمية الأولى على يد أسرته، فقد حفظ القرآن الكريم عن قرّاء الأندلس، وفي مقدمتهم خاله أبو شاكر التجيبي، كما أخذ الحديث وعلومه عن أبي الأصبغ عيسى بن خلف المعروف بابن درهم، كما درس اللغة والفقه والأدب عن قضي يونس بن محمد بن مغيث وغيره .

ولم يكتف أبو الوليد الباجي بالبقاء في الأندلس، بل عزم على الرحلة في طلب المزيد من العلم إلى بلاد المشرق الإسلامي للاتصال بأعلامه والاستفادة منهم، ولم يمنعه فقره على تحقيق رغبته الملحة، فقد أخذ عن شيوخ المشرق وعلمائه مختلف الفنون العلمية، لا سيما علم الفقه على طريقة مالكية أهل العراق، وكذلك علمي الجدل والمناظرة .

وقد عكف على تحصيل العلم طيلة ثلاث عشرة سنة بجد واجتهاد حتى عاد إلى الأندلس بعلم وافر وزاد كبير، وبذلك أصبحت له مكانة علمية رفيعة بين أهل الأندلس وأمرائها، ثم بذل كل ما جهوده في التربية والتعليم والتأليف، والسعي بين ملوك الطوائف الذين وجدهم أحزابا وشيعا، فدعاهم إلى الوحدة وجمع الكلمة لمواجهة الأعداء.

-3- **مكانته العلمية:** بلغ الإمام أبو الوليد الباجي رتبة عالية من العلم؛ حيث جمع بين العلم والتقوى، والدراية والصلاح، والفقه والفطنة، واللغة والأدب، حتى أثنى عليه كثير من العلماء وفيما يلي بعضا من شهاداتهم على شخصيته العلمية الرفيعة.

قال أبو علي الصدفي:"ما رأيت مثل أبي الوليد الباجي، وما رأيت أحدا على سمته وهيئته وتوقير مجلسه"(3). وقال الإمام الذهبي: "وذهب إلى الموصل فأقام بها سنة مع القاضي أبي جعفر السمناني المتكلم، صاحب ابن الباقلاني، فبرز في الحديث وعلله والفقه، والكلام والأصول والأدب" (4). وقد كان الإمام ابن حزم الظاهري يجلّه ويقدره ويقول عنه:"لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد غياب القاضي عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم"(5.).

وقد أثنى عليه القاضي عياض كثيرا بقوله:"كان أبو الوليد الباجي رحمه الله تعالى فقيها نظّارا محققا راوية، محدّثا يفهم صنعة الحديث ورجاله، متكلّما أصوليا، فصيحا شاعرا مطبوعا، حسن التأليف، متقن المعارف، له في هذه الأنواع تصانيف جليلة، ولكن أبلغ ما كان منها في الفقه، وإتقانه على طريق النّظار من البغداديين وحذّاق القرويين، والقيام بالمعنى والتأويل، وكان وقورا بهيا، جيّد القريحة، حسن الشارة" (6.).

وقال الأمير أبو نصر بن ماكولا في حقه:" أما الباجي ذو الوزارتين فقيه متكلم، أديب شاعر، سمع بالعراق، ودرس الكلام، وصنف إلى أن مات، وكان جليلا رفيع القدر..." (7). وقال ابن خلكان:"كان من علماء الأندلس وحفّاظها" (8). ووصفه ياقوت الحموي بقوله:" أبو الوليد الباجي، الفقيه المتكلم، المفسر، الأديب الشاعر" (9). وقال الفتح بن خاقان واصفا القاضي أبا الوليد الباجي:"ب در العلوم اللائح، وقطرها الغادي الرائح، وثبيرها الذي لا يزحم ومنيرها الذي يتجلى به ليلها الأسحم، كان إمام الأندلس الذي تقتبس أنواره، وتنتجع اتجاده وأغواره"(10).

ويكفي في وصفه ما كتبه الوزير الأديب أبو محمد ابن عبد البر عن مجاهد العامري أمير دانية إلى المظفر حاكم بطليوس حيث قال:"...والفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي غذيّ نعمتك، ونشأة دولتك، هو من آحاد عصره في علمه، وأفراد دهره في فهمه، وما حصل أحد من علماء الأندلس متفقها على مثل حظه وقسمه، وقد تقدّم له بالمشرق صيت وذكر، وحصل بجزيرتنا ولك به جمال وفخر، فإنه إليك تنعطف أسبابه، وعليك تلتقي وتلتف آرابه، لكن شدّدت عليه يدي، وجعلته علم بلدي، يشاور في الأحكام، ويُهتدى إليه في الحلال والحرام، قد ساهمتك به، كما تساهمنا وتشاركنا في الأموال السلطانية ، والأمور الدنيوية"(11). وذكر تلميذه القاضي أبو علي الصدفي قصته لما كان ببغداد، والتي تبيّن مكانة الإمام أبي الوليد الباجي العلمية، حيث يقول:"ولما كنت ببغداد قدم ولده أبو القاسم فسرت معه إلى شيخنا قاضي القضاة أبي بكر الشاشي، فقلت له: أدام الله تعالى عزّك هذا ابن شيخ الأندلس، فقال: لعلّه ابن الباجي؟ فقلت: نعم، فأَقْبِلْ عليه، وقال: هو أحد أئمة المسلمين" (12)

هذا قليل من كثير من شهادات الأئمة الأعلام في حقّ الإمام أبي الوليد الباجي، وهي إن دلّت على شيء فإنما تدل على مدى مكانته المرموقة في

مجال العلم والمعرفة، حيث ذاع صيته، وانتشر ذكره في الآفاق مشرقا ومغربا.

-4مؤلفات أبي الوليد الباجي: ألّف أبو الوليد تصانيف كثيرة ومفيدة، تناولت الأصول والفروع، والتفسير والحديث، وعلم الرجال وتراجمهم، وفن الجدل والمناظرة، ومسائل الخلاف والعقيدة، والزهد والرقائق، وغير ذلك، وهي تدل على نبوغه وسعة علمه .

أ- **مؤلفاته المطبوعة**: وهي متنوعة منها ما هي على شكل كتاب، ومنها ما هي على رسائل صغيرة الحجم.

-المنتقى شرح الموطأ: وهو كتاب شرح في الباجي موطأ مالك، انتقاه من كتابه الاستيفاء .

-فصول الأحكام، وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام: هو كتاب يتعلق بالأحكام التي يرجع إليها القاضي والمفتي. حُقِّقَ مرتين: الأولى بتحقيق الأستاذ الدكتور محمد أبو الأجفان، والثانية بتحقيق الأستاذة الباتول بن علي.

-إحكام الفصول في أحكام الأصول: هو كتاب في أصول الفقه. حقّقه كل من الدكتور عبد الله الجبوري والدكتور عبد المجيد التركي.

-الإشارة في معرفة الأصول، والوجازة في معنى الدليل: حققه شيخنا وأستاذنا الدكتور محمد علي فركوس، والكتاب يسمى الإشارات أو الإشارة في الأصول.

-الحدود في الأصول: وهو كتاب صغير الحجم في بيان معاني بعض المصطلحات الأصولية. حققه الأستاذ الدكتور نزيه حماد.

-المنهاج في ترتيب الحجاج: هو كتاب في علم الجدل. حققه الأستاذ الدكتور عبد المجيد تركي.

-التعديل والتجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصحيح: هذا الكتاب في أسماء الرجال الذين ورد ذكرهم في صحيح البخاري، مرتب على حروف المعجم. حققه الدكتور أبو لبابة حسين

-مختصر مشكل الآثار: هو كتاب اختصر فيه الباجي كتاب مشكل الآثار لأبي جعفر أحمد الطحاوي .

-تحقيق المذهب في أن النبيr قد كتب: هي رسالة ألفها الباجي ردا على المخالفين له في قضية أميّة الرسول.r

-الرد على رسالة الراهب الفرنسي: هي رسالة ألفها الباجي في الرد على دعوة راهب فرنسا.

-شرح حديث" البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر": هي رسالة صغيرة الحجم ألّفها الباجي في بيان معنى حديث "البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر." ‘ ‘

-الوصية لولديه: هي رسالة قيّمة يوصي فيها الباجي ولديه إلى مكارم الأخلاق، وإلى سبيل الخير والفلاح.

ب-مؤلفاته المخطوطة وما في حكم المفقود: هناك العديد من مؤلفات الباجي لا تزال مخطوطة أو في حكم المفقود، وهي:

-الاستيفاء: وهو كتاب كبير جامع في شرح الموطأ، وقد أشار إليه الباجي إلى كتابه هذا في مقدمة المنتقى .

-المعاني في شرح الموطأ: جاء في عشرين مجلدا، عديم النظير لم يؤلف مثله .

-الإيماء: هو اختصار لكتاب المنتقى.

-شرح المدوّنة: هو كتاب شرح فيه الباجي المدونة، وقيل عنه بأنه لم يكمل شرحها.

-المهذّب في اختصار المدونة: هو اختصار للمدونة.

-مختصر المختصر في مسائل المدونة: هو مختصر لاختصار مسائل المدونة.

-المقتبس في علم مالك بن أنس: كتاب في الفروع لم يتمه الباجي.

-اختلاف الموطآت: هو كتاب في روايات الموطأ المختلفة، والزيادات والتعديلات التي أدخلها مالك على الموطأ.

-فرق الفقهاء: هو كتاب في مسائل الخلاف .
-التبيين لمسائل المهتدين: هو اختصار لكتابه فرق الفقهاء السالف الذكر.
-فهرست: هو عبارة عن برنامج لشيوخ الإمام الباجي ورواياته عنهم.
-الناسخ والمنسوخ: لم يكمل الباجي تأليفه.
-التسديد إلى معرفة طرق التوحيد: هو كتاب في العقيدة وأصول التوحيد.
-تفسير القرآن الكريم: هو كتاب في تفسير القرآن الكريم لم يتمه الباجي.
-سنن الصالحين وسنن العابدين: كتاب في الزهد والرقائق.
-سبيل المهتدين: في التوحيد و الوعظ معا.
-الانتصار لأعراض الأئمة الأخيار: كتاب في الدفاع عن الأئمة الأخيار.
-رفع الالتباس في صحة التعبد.
-تهذيب الزاهر لابن الأنباري: كتاب في اللغة، هذّب فيه كتاب الزاهر لابن الأنباري.
-السراج في عمل الحجاج: كتاب في مسائل الخلاف لم يكمل تأليفه.
-التحذير من بدعة مولد النبي r:
-مسألة مسح الرأس.
-مسألة غسل اليدين.
-مسألة اختلاف الزوجين في الصداق: في الفقه المالكي.

5- وفاته: توفي أبو الوليد الباجي بالمرية عندما جاءها سفيرا بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام، وعلى جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين فعاجلته المنية قبل تمام غرضه. وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته، لكن الذي عليه جمهور المؤرخين هو أن أبا الوليد الباجي توفي ليلة يوم الخميس -بين العشاءين- في التاسع عشر من شهر رجب سنة 474هـ، وصلى عليه ابنه أبو القاسم أحمد ودفن في الرباط على ضفة النهر (13)

ثانيا: شعر أبي الوليد الباجي ونثره

أ- شعر أبي الوليد الباجي

مما هو معلوم أن أبا الوليد الباجي كان في بداية حياته ومشواره العلمي مهتما بالأدب والشعر كثيرا حتى أنه كان يجمع دواوين الشعر ويحفظها، وقد ساعده على ذلك الوسط العائلي الذي كان يعيش فيه، حيث أنه تلقى العلم في أوّل مراحله على خاله أبي شاكر الذي يعتبر من الخطباء البلغاء، ومن الشعراء الفصحاء المشهورين بالأندلس، فاستفاد منه كثيرا خاصة في هذا الجانب حتى صار بارعا في الأدب وممارسة الشعر. ويحدّثنا ابن بسام في هذا الشأن فيقول:"نشأ أبو الوليد الباجي وهمّته في العلم تأخذ بأعنان السماء، ومكانه من النثر والنظم يسامي مناط الجوزاء، وبدأ في الأدب فبرز في ميادينه واستظهر أكثر دواوينه، وحمل لواء منثوره وموزونه، وجعل الشعر بضاعته، فوصل الأسباب بالأسباب، ونال به مأكل القحم الرغاب حتى جنَّ الإحسان بذكره، وغنّى الزمان بغرائب شعره..." (14).

وقد بدأ أبو الوليد الباجي حياته كشاعر يمدح الأمراء والرؤساء والملوك، سواء أثناء إقامته بالأندلس أو بعد رحلته إلى المشرق، ومروره بمصر والقيروان، وإلى هؤلاء أشار ابن بسام في ذخيرته بقوله:" واستغنت مصر والقيروان بخبره عن خبره، ولم تزل أقطار تلك الآفاق تواصله، وعجائب الشام والعراق تغازله حتى أجاب ، وشدّ الركاب وودّع الأوطان والأحباب، فرحل سنة ست وعشرين، فما حلّ بلدا إلا وجده ملآن بذكره، نشوان من قهوتي نظمه ونثره..." (15). فكان أبو الوليد الباجي لا يمر ببلد في رحلته المشرقية إلا ويقول شعرا حتى احتاج في سفره إلى القصد

بشعره. وقد تولى ابنه أبو القاسم أحمد جمع أشعاره، لكن لم يصل إلينا منه سوى ما أوردته تلك المصادر التي ترجمت للإمام الباجي.

والظاهر أن جلّ أشعار أبي الوليد الباجي نظّمها بعد عودته من رحلته المشرقية، وبعد أن رسخت قدمه في العلم. وقد تضمن شعر أبي الوليد الباجي جملة من الأغراض المختلفة، والتي تعكس تجربته في الحياة، ولكن الغالب على موضوعاته الشعرية الرثاء والحمد والتأمل، وفيما يلي نماذج من شعر أبي الوليد الباجي المتضمن لمختلف الأغراض الشعرية.

-1المديح: نجد من بين الذين مدحهم أبو الوليد الباجي شيوخه وأساتذته ولعلّ أبرزهم شيخه قاضي بغداد الإمام السمناني مدحه عندما كان قاضيا ببغداد في قصائد شعرية متعددة ذكرها بعض المترجمين كياقوت الحموي (16) وغيره. يقول أبو الوليد الباجي مادحا أستاذه القاضي السمناني:

يا بعد صبرك أتهموا أم أنجدوا
هيهات منك تصبّر وتجلّد
يأبى سلوّك بارق متألق
وشميم عرف عرارة ومغرّد
في كل أفق لي علاقة خولة
تهدي الهوى وبكل أرض تهمد
ما طال عهدي بالدّيار وإنّما
أنسى معاهدها أسى وتبلّد
ولقد مررت على المعاهد بعدما
لبس البداوة رسمها المتأبد
فاستنجدت ماء الدموع لبينهم
فتتابعت حتى توارى المنجد
طفقت تسابقني إلى أمد الصّبا
تلك الرّبى ومنال شأوي يبعد
لو كنت أنبأت الديار صبابتي
رقّ الصّفا بفنائها والجلمد
هذا الشهاب المستضاء بنوره
علم الهدى هذا الإمام الأوحد
هذا الذي قمع الضلالة بعدما
كانت شياطين الضلال تمرّد (17)

وممن مدحهم أيضا الأمير معزّ الدولة أبا علوان ابن أسد الدولة المسمى ثمال بن صالح المرداسي صاحب حلب، وهو الذي ولاّه القضاء بها عامًا قبل عودته إلى الأندلس سنة 439هـ، مدحه بقصائد منها.

لريّاهم في عرف ربعك عنوان
ومن حسنهم في حسن معناك تبيان
وفيك من الحي الذين تحمّلوا
مخايل أغصان تميس وكثبان
وكم ليلة فيها تعسفت حولها
وكالئها منّي مشيح ويقظان
سرينا كما يسري الخيال وغضّضت
على ركبنا من ناظر الليل أجفان
لبسنا برود الليل حتى تشقّقت
جيّوب تضيء بالصباح وأردان
حويت معزّ الدولة الملك فاعترى
بذكرك في الآفاق ملك وسلطان
فللمجد سلك قد أجيد نظامه
وأنت لذلك السلك درّ ومرجان (18)

ومن ممدوحيه أيضا بعد عودته إلى الأندلس المعتضد بن عبّاد، حيث يقول فيه مادحا:

عبّاد استعبد البرايا
بأنعم تبلغ النعائم
مديحه ضمن كل قلب
حتى تغنّت به الحمائم (19)

-2الرثاء: أو بالأحرى ما يسمى برثاء الأبناء؛ حيث لم يرثِ الباجي غير ولديه، ومن ثم فإن ملامح شعره ستكون محصورة في هذا النوع من الرثاء. علما أن رثاء الآباء لأبنائهم ظاهرة أدبية معروفة منذ القدم، وقد حفلت دواوين الشعراء وكتب

الطبقات والتراجم بهذا النوع من الرثاء، وهو أصدق أنواع الرثاء عاطفة وأعمقها؛ لأن مصيبة الوالد في ولده تصيبه في سواد قلبه، لهذا نرى الآباء في رثائهم لأبنائهم يفرغون حزنهم وألمهم في قوالب شعرية مملوءة بالثكل والمرارة والحرقة، وتتعاظم المصيبة إذا كان ولده مغترب، وهي تزداد إذا توفي له ولدان أثناء اغترابهما، إذ الألم ألمان ألم الغربة وألم الموت، وهذا ما حصل مع شاعرنا أبي الوليد الباجي (20)، إذ توفي له ولدان وهما مغتربان ومقترنان عندما كان بالمشرق في رحلته العلمية، رثاهما بحرارة وحرقة وحزن كبير فقال :

رعى لله قبرين استكانا ببلدة
هما أسكناها في السواد من القلب
لئن غيبا عن خاطري وتبوءا
فؤادي لقد زاد التباعد في القرب
يقر بعيني أن أزور ثراهما
وألصق مكنون الترائب بالترب
وأَبْكِي وأُبْكِي ساكنيها لعلّني
سأنجد من صحب وأسعد من سحب
ولا استعذبت عيناي بعدهما كِرى
ولا ظمئت نفسي لي البارد العذب
أحن ويثني اليأس نفسي عن الأسى

كما اضطر محمول على المركب الصعب (21)

وللباجي قصيدة ثانية في رثاء ابنه أبي الحسن محمد لمّا فَقَدَه؛ حيث توفي في ريعان شبابه سنة 472هـ بمدينة سرقسطة قبل وفاة أبيه بسنتين، وقد كان ذكيا مرجو الصلاح، وقد كان لفراقه الأثر البالغ على والده فرثاه بمراثي شجية؛ حيث قال فيه:

أمحمّدُ إن كنتُ بعدك صابرا
صبرَ السليم لما به لا يسلم
ورُزئتُ قبلك بالنبي محمدٍ
ولرزؤه أدهى لديَّ وأعظمُ
فلقد علمتُ بأنني بك لاحق
من بعد ظني أنني متقدمُ
لله ذكرٌ لا يزال بخاطري
متصرف في صبره متحكمُ
فإذا نظرتُ فشخصه متخيل
وإذا أصخت فصوته متوهمُ
وبكل أرض لي من أجلك روعة
وبكل قبر عبرة وترنمُ
فإذا دعوت سواك حاد عن اسمه
ودعاه باسمك مقول بك مغرمُ
حكم الردى ومناهج قد سنها
لأولي النهى والحذق قبل متممُ
فلئن جزعت فإن ربي عاذر
ولئن صبرت فإن صبري أكرمُ (22)

3- الزهد: لم يتعلق أبو الوليد الباجي بالدنيا وزخرفها، وإنما بقي محافظا على زهده في الدنيا وتعلقه بالآخرة، وكان كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين اللذان أنشدهما له الفتح بن خاقان القيسي الأندلسي، كما رواهما له قبل ذلك الخطيب البغدادي الذي قال: أنشدني أبو الوليد الباجي لنفسه:

إذا كنت أعلم علما يقينا
بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها
وأجعلها في صلاح وطاعة (23(

وقال أبو الوليد الباجي متضرعا:

تداركت من خطأي نادما
ومالي سوى خالقي راحما
فلا رفعت صَرعتي إن رفعت
يداي إلى غير مولاهما
أموت وأدعو إلى من يموت
بماذا أكفّر هذا بما؟ (24)

ومن شعره في الزهد قوله:

تبلّغ إلى الدنيا بأيسر زاد
فإنك عنها راحل لمعاد

وغض عن الدنيا وزخرف أهلها
جفونك واكحلها بطول سهاد
وجاهد عن اللذات نفسك جاهدا
فإن جهاد النفس خير جهاد
فما هذه الدنيا بدار إقامة
فيعتدّ من أغراضها بعتاد
وما هي إلا دار لهو وفتنة
وإن قصارى أهلها لنفاد (25)

ونجد في زهديات الإمام الباجي تضمين واقتباس من آيات الذكر الحكيم لفظا ومعنى كقوله :

يا قلب إما تلهني كاذبا
أو صادقا عن الهدى جائرا
تشغلني عن عمل نافع
في موقف ألقاك لي ضائرا
أحر بأن تسلمني نادما
إن لم ألاق الله عاذرا
وحاق بي ما جاء عن ربنا ’
’ووجدوا ما عملوا حاضرا“ (26)

ففي عجز البيت الأخير من هذه الأبيات يقتبس من الآية الكريمة لفظها ومعناها، وهي قوله تعالى]وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً[سورة الكهف، الآية (49).

ومن جيد نظمه دعوته الناس لحمد الله وشكره على النعم والآلاء التي منّ الله بها على خلقه كالسمع البصر والمقدرة على النطق؛ حيث قال :

الحمد لله ذي الآلاء والنّعم
ومبدع السمع والأبصار والكلم
من يحمد الله يأتيه المزيد ومن
يكفر فكم نعم آلت إلى نقم (27)

كما نجد أن الإمام الباجي أحيانا يأتي بمعنى الآية ويصوغها بألفاظه كقوله:

الحمد لله حمد معترف
بأنّ نعماه ليس نحصيها
وأنّ ما بالعباد من نعم
فإن مولى الأنام موليها
وأن شكري لبعض أنعمه
من خير ما نعمة يواليها (28)

ففي البيت الأول نجد أن أبا الوليد الباجي قد صاغه من قوله تعالى]وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة النحل، الآية: (18). بينما صاغ البيت الأخير من قوله تعالى:]وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [سورة إبراهيم، الآية (07).

أمّا ما يتلق بتأثره بالحديث النبوي الشريف وأدعيته r ، فقد قال أبو الوليد الباجي في معنى السفر:

إذا كنت ربي في طريقي صاحبا
وتخلفني في الأهل ما دمتُ غائبا
فسهّل سبيلي وأزو عني شرّها
وشرّ الذي ألقاه في الأهل آيبا (29)

نجد أن الباجي قد صاغ هذين البيتين مقتبسا من دعاء النبي r في السفر، وهو ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله r كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى السفر كبّر ثلاثا ثم قال: سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، واطو عنّا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد (30).

وظاهرة تأثر أبي الوليد الباجي بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لفظا ومعنى، يدل دلالة واضحة على مدى تعلقه بعلوم الشريعة التي برز فيها كما سبق وأن أشرنا.

وقال أبو الوليد الباجي واعظا مذكرا حاضا على الاستقامة:

إذا كنت تعلم أن لا مجير
لذي ذنب من هول يوم الحساب
فاعص الإله بقدر ما
تحبّ لنفسك سوء العذاب (31)

وقال أبو الوليد الباجي في فضل قيام الليل بغاية حث الناس على التهجد والدعاء:

قد أفلح القانت في جنح الدّجى
يتلو الكتاب العربيّ النّيرا
فقائما وراكعا وساجدا
مبتهلا مستعبرا مستغفرا
له حنين وشهيق وبكا
يبلّ من أدمعه ترب الثّرى
إنا لَسَفَر نبتغي نيل المدى
ففي السّرى بغيتنا لا في الكرى
من ينصبّ الليل ينل راحته
عند الصباح يحمد القوم السّرى (32)

-4الغزل: قال أبو الوليد الباجي في معنى الغزل، وهو من جيد نظمه في التعبير عن الأشواق.

أسرّوا على الليل البهيم سراهم
فنمّت عليهم في الشّمال شمائل
متى نزلوا ثاوين بالخيف من منى
بدت للهوى بالمأزمين مخايل
فللّه ما ضمّت منى وشعابها
وما ضمّنت تلك الرّبى والمنازل
ولمّا التقينا للجمار وأبرزت
أكفّ لتقبيل الحصى وأنامل
أشارت إلينا بالغرام محاجر
وباحت به منا جسوم نواحل (33)

ومن جيد نظمه في تصوير الصبابة والأشواق المضطرمة:

ما طال عهـــدي بالديـــار
وإنما معاهـــدها أسى وتبلد
لو كنت أنبأت الديار صبابتي
رقّ الصّفا بفنائها والجلمد (34)

هذه بعض قصائد الإمام أبي الوليد الباجي، وأشعاره اللطيفة التي تنبئ عن شاعريته الرقيقة، وخياله الخصب، وهي تدل على أن أبا الوليد الباجي قد مَلَكَ ناصية الشعر، وتوسَّع فيه، وله قصائد أخرى (35) لا يسع المجال لذكرها جميعا.

ثانيا: نثر أبي الوليد الباجي

مما لا شك فيه أن الإمام أبا الوليد الباجي راسخ القدم في اللغة وتصاريفها، كما كان راسخا في الفقه وأصوله، وبديهي أن الفقيه والأصولي المتكلم لا يمكنه الاستغناء بحال عن اللغة ودقائقها لما يحتاجه منها لتأدية معانيه وتجلية براهينه وصَوْغِ أقيسته، ولا يعدم الباجي سببا آخر فوق هذا، يتمثل بمعاصرته لابن حزم واضطراره إلى تعظيم بضاعته من علم اللغة، فكان رحمة الله عليه حينما يتصدى للكلام على المسائل الشرعية يتعرض لأبسط تصاريف اللغة، والذي يطّلع على كتابه النفيس "إحكام الفصول في أحكام الأصول" في الفصل الذي عقده في بيان الحروف التي تدور بين المتناظرين لَدَلِيل على رسوخه في النحو والصرف، وبراعته في تطويع اللغة لأغراض يخدم بها العلوم الأخرى كعلمي الجدل والمناظرة (36). كما كان للإمام أبي الوليد الباجي نصيب وافر، وإضاءات مشرقة في البلاغة والبيان. وفيما يلي مقتطفات من نثره الأدبي الرفيع مأخوذ من رسالته في جوابه وردّه على رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (37)، وكذا رسالته المتضمنة وصيّته لولديه (38).

1. مقتطفات من نثره الأدبي مأخوذة من رسالته: الردّ على راهب فرنسا

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة هي عبارة عن نص الجواب الذي كلّف الأمير القاضي أبا الوليد الباجي بكتابته ردّا على رسالة الراهب الفرنسي التي بعث بها إلى الأمير المقتدر بالله حاكم سرقسطة يدعوه فيها إلى الدخول في دين

النصارى، فكان جواب الإمام الباجي ردّا على أصول العقيدة النصرانية مع بيان محاسن الإسلام والدعوة إليه.

قال أبو الوليد الباجي: ’تصفحت - أيّها الراهب - الكتاب الوارد من قبلك وما متتّ به من مودّتك، وأظهرته من نصيحتك وأبديته من طويّتك، فقبلنا مودّتك لما بلغنا من مكانتك، عند أهل ملّتك واتّصل بنا من جميل إرادتك، ونبهتنا لعمر الله! بنصيحتك على ما يلزمنا من ذلك لك، ولولا ما كنّا نعتقد من بعد مستقرك، وتعذر وصول كتابنا إليك، لكنّا أحرياء أن نأتي من ذلك ما يلزم، ونسلك منه السبيل الأوجب، ولكنتَ - عندنا - جديرا بعرض الحق عليك وإيصاله إليك، فقد قرّر لدينا من وصل رسلك وأهل ملّتك علينا ما تظهره من حرصك على الخير، ورغبتك في الحق مما قوّى رجاءنا في قبولك له، وإقبالك عليه، وأخذك به، وإنابتك إليه...“ (39). وقال في موضع آخر من الرسالة:”...وأمر الدنيا أحقر، وشأنها أنفر وأنزر من أن يغتر بها ذو عقل، أو أن يسكن إلى غرورها ذو لبّ، وإنما هي دار اختبار واعتبار، وليست بدار جزاء ولا قرار، فالسعيد من عمل فيها وتزوّد منها إلى دار المقام الذي لا ينفذ، والنعيم الذي لا ينقضي...“ (40).

وقال أبو الوليد الباجي في موضع آخر من الرسالة:” ويلزمنا الاجتهاد في النصح لك، والرفق بك، والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمة المكرّمة، ومن أهل هذه الملّة المعظّمة الناسخة لجميع الملل، والحاكمة على سائر الفرق فتفوز برضى ربّ العالمين وتنجو من سخطه، وتنال ثواب يوم الدّين، وتخلص من معرّته، وتسعد في الدنيا بالكون من جملتنا وتحظى بالقرب من نفوسنا...“ (41). وقال أيضا:”...فإن قبلت نصحي وسمعت موعظتي أخرجناك -بعون الله- من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق، وأريناك من طرق الاستدلال، وتميز البراهين والأمثال ما يشرح صدرك وينوّر قلبك، وتعلم به الحقائق، ومعاني هذه الألفاظ التي أنت بها معجب ومخطئ في إيرادها على غير وجهها، وتتيقن أنها من أقلّ أبواب الكلام، وأضعف ما يتمسك به ذوو الأحلام ...“ (42). وقال في آخر الرسالة:”...والله نسأل أن يهديك، ويهدي بك من قبلك فتفوز بأجورهم وتكون سببا إلى استنقاذهم! فأنت -فيما بلغنا- مطاع فيهم، والسّلام على من اتبع الهدى“ (43).

2. مقتطفات من نثره الأدبي الرفيع مأخوذة من وصيّته لولديه

هذه الوصية القيّمة هي عبارة عن نصيحة من الشيخ أبي الوليد الباجي إلى فلذة كبده باعتباره أنه لا أحد أنصح منه لهما، والوصية وإن كانت لولديه، فهي تعتبر رسالة توجيهية إلى الناشئة تضمّنت الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها.

ويندرج هذا النوع من الكتابة تحت أدب الوصايا الذي عُرِفَ بالأندلس والمغرب عموما، فنظّموا ونثروا في مجاله، ومن بين هؤلاء الأديب الكبير أبو الوليد الباجي الذي يقول في وصيته الجامعة إلى ولديه بعد أن بلغا سنّ الرشد والإدراك:”...واعلما أنه لا أحد أنصح منّي لكما، وأشفق منّي عليكما، وأنه ليس في الأرض من تطيب نفسي أن يفضل عليّ غيركما، ولا أرفع حالا في أمر الدّين والدّنيا سواكما، وأقلّ ما يوجب ذلك عليكما أن تصيغا إلى قولي، وتتعظ بوعظي، وتتفهما إرشادي ونصحي، وتتيقنا أني لم أنهكما عن خير، ولا أمرتكما بشر، وتسلكا السبيل التي نهجتما، وتمتثلا الحال التي مثلتها...“ (44).

ويقول في موضع آخر من وصيته حاثًّا على طلب العلم، والاجتهاد في تحصيله:”...والعلم سبيل لا يفضي بصاحبه إلاّ إلى السعادة، ولا يقصر به عن

درجة الرّفعة والكرامة، قليله ينفع وكثيره يعلي ويرفع، كنز يزكو على كل حال ويكثر مع الإنفاق، ولا يغصبه غاصب، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب، فاجتهدا في طلبه، واستعذبا التّعب في حفظه والسّهر في درسه، والنّصب الطويل في جمعه، وواظبا على تقييده وروايته، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته، وانظرا أيّ حالة من أحوال طبقات الناس تختاران، ومنزلة أيّ صنف منهم تؤثران، هل تريان أحدا أرفع حالا من العلماء، وأفضل منزلة من الفقهاء؟... يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس، ويقتدي بهم الوضيع والنفيس، يرجع إلى أقوالهم في أمور الدنيا وأحكامها، وصحة عقودها وبياعاتها، وغير ذلك من تصرفاتها، وإليهم يلجأ في أمور الدّين، وما يلزم من صلاة وزكاة وصيام، وحلال وحرام، ثم مع ذلك السلامة من التّبعات والحظوة عند جميع الطبقات، والعلم ولاية لا يعزل عنها صاحبها، ولا يعرى من جمالها لابسها، وكلّ ذي ولاية وإن جلت، وحرمة وإن عظمت، إذا خرج عن ولايته أو زال عن بلدته، أصبح من جاهه عاريا، ومن حاله عاطلا غير صاحب العلم، فإنّ جاهه يصحبه حيث سار، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار، ويبقى في سائر الأعصار..." (45). ويقول بعد هذا مباشرة من وصيته:"...وأفضل العلوم علم الشريعة، وأفضل ذلك لمن وفّق أن يجوّد قراءة القرآن، ويحفظ حديث النبي r ويعرف صحيحه من سقيمه، ثم يقرأ أصول الفقه فيتفقه في الكتاب والسنة، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء، ويدرّب في طرق النّظر وتصحح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا. ومن قصّر عن ذلك فليقرأ بعد تحفظ القرآن ورواية الحديث المسائل على مذهب مالك - رحمه الله - فهي إذا انفردت أنفع من سائر ما يقرأ مفردا في باب التفقه، وإنما خصصنا مذهب مالك -رحمه الله- لأنه إمام في الحديث، وإمام في الرأي، وليس لأحد من العلماء ممن انبسط مذهبه، وكثرت في المسائل أجوبته، درجة الإمامة في المعنيين، وإنما يشاركه في كثرة المسائل وفروعها، والكلام على معانيها وأصولها أبو حنيفة والشافعي، وليس لأحدهما إمامة في الحديث، ولا درجة متوسطة" (46).

- **المصادر والمراجع**

-1القرآن الكريم

- 2الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين للزركلي: خير الدين، دار العلم للملايين. بيروت، لبنان. الطبعة السابعة. أيّار (مايو) 1986م.

-3تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا: آنخل جنثالث.. نقله عن الإسبانية حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر .

- 4تحقيق المذهب في أن النبي r قد كتب للإمام الباجي. هذه الرسالة نشرت بتحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، الطبعة الأولى: 1403هـ – 1983م، عالم الكتب للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض.

-5تذكرة الحفاظ للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، دار إحياء التراث العربي. بيروت، لبنان.

-6ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك لعياض: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت544هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة، بيروت. دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا.

-7تهذيب تاريخ ابن عساكر لابن بدران: عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدومي الدمشقي (ت1346هـ). مطبعة الترقي، دمشق، سوريا.

-8الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون: برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي المدني (ت799هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور. مكتبة دار التراث.القاهرة، مصر.

-9الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام: الشنتري (ت542هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، لبنان:1399هـ.

-10الرد على رسالة الراهب الفرنسي. نشرت هذه الرسالة بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد:03 :1374هـ. 1955م، المجلد الأول.

-11كتاب الصلة لابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية، القاهرة، مصر: 1966م.

- 12سير أعلام النبلاء للذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرناؤوط وجماعة من العلماء. مؤسسة الرسالة. بيروت، لبنان. الطبعة الحادي عشرة:1422هـ . 2001م.

-13شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف: الشيخ محمد بن محمد (ت1360هـ)، خرج حواشيه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: 1424هـ. 2002م.

-14شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت1089هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

-15صحيح مسلم المسمى بالجامع الصحيح. اعتنى بطبعه وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: 1422هـ. 2001م.

-16المجلة الثقافية. العدد: 33 أكتوبر 1984م. مجلة فصلية تصدر عن الجامعة الأردنية.

-17مجلة سر من رأى، جامعة سامراء. المجلد الثالث، العدد الثامن، السنة الثالثة:2007.

-18مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد. العدد الثالث: 1374هـ/ 1955م. المجلد الأول. تصدر عن وزارة التربية والتعليم. مصر. الإدارة العامة للثقافة العامة.

-19معجم الأدباء للحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. الطبعة الثالثة: 1400هـ. 1980م .

-20نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقري: أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت1041هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي. إشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: 1419هـ. 1998م.

-21هذه سبيلي. العدد السادس: 1404هـ. 1984م. دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي. مجلة سنوية يصدرها المعهد العالي للدعوة الإسلامية. أشرفت على طباعتها ونشرها إدارة الثقافة والنشر بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

-22وصية الباجي لولديه. نشرت هذه الرسالة بمجلة "هذه سبيلي" العدد:06 :1404هـ – 1984م. بتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي .

-23وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت681هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس. دار صادر. بيروت، لبنان.